ملامح الصورة المكانية في الشعر الجاهلي دراسة في الفكر الجغرافي العربي

الكلمات المفتاحية : اكتسب، الادب، العربي

م. د. احمد يحيى عنوز
جامعة الكوفة – كلية الآداب
ahmedy.annooz@uokufa.edu.iq

الملخص

اكتسب الأدب الجغرافي أهميه كبيرة في الدراسات الجغرافية بصورة عامة وبدراسات الفكر الجغرافي بصورة خاصة من منطلق أن الآداب الجغرافية هي صورة ومرآة حقيقية تطور الجغرافية عبر مراحلها الزمنية فهو أدب ذو تاريخ قديم تمتد جذوره إلى ما قبل العصر اليوناني و تداخلت جذوره مع جذور العلوم الأخرى.

تشكلت ملامح الصورة المكانية في الشعر الجاهلي من خلال المفردات والمعاني ذات الطبيعة الجغرافية التي تناولتها أشعار العصر الجاهلي التي بيّنت الصفة المكانية الواضحة للأدب الجغرافي ، ولهذا فان الاستدلال الحقيقي لتاريخ الأدب الجغرافي في هذا العصر ظهر من خلال الأشعار .

إنّ السبب المباشر في بروز خصائص الصورة المكانية وملامحها في العصر الجاهلي هو الاحتكاك المباشر للمجتمع بكل طبقاته مع بيئته والتأثر بها والذي أعطى دافعاً قوياً في أن يضع المجتمع آنذاك جل اهتماماته بالقضايا الجغرافية وعلى أصعدة الحياة كافة ، الأمر الذي جعلهم ملازمين لهذه القضايا وذكرها بكل المناسبات ومنها المناسبات الشعرية وهذا ما اكدته القصائد الشعرية في العصر الجاهلي التي تضمنت صوراً وأساليب تتحدث عن المكان وخصائصه بصورة وصفية واضحة الدلالات .

مقدمة

الجغرافيا علم المكان والزمان ، علم يهتم بالوصف الدقيق والتحليل لكل الظواهر الحاصلة على مر العصور وهذا ما شكل لها علماً متطوراً بعد ان كانت معرفة بدائية، الأمر الذي اكسبها صفة علمية انخرطت مع العلوم وآدابها ، وهذا ما تناقلته الآداب من تراث علمي للعلوم العربية ومنها الدراسات الجغرافية . إذ ان علم الجغرافيا يتحدد بدراسة الظاهرة مكانياً و زمانياً وهذا ما يؤكد أحقية الصورة المكانية

وبعض ملامحها لهذا العلم التي أخذت تتبلور في دراسة كل القضايا الطبيعية والبشرية بعد ان كانت صورة مكانية وصفية كلامية تحولت إلى صورة مكانية تحليلية ذات مناهج متعددة أعطاها صفة التحليل المتعدد للصور المكانية .

أن لطبيعة البيئة السائدة آنذاك ولاحتكاكها المباشر مع الإنسان أثراً قوياً في تشكيل ملامح الصورة المكانية ، إذ أخذ الإنسان يصب جل اهتماماته بالقضايا المكانية وذلك من خلال المفردات التي تتداول بصورة مستمرة على أصعدة الحياة كافة ، السبب الذي جعلها مفردات طاغية على اغلب أنشطة الإنسان وهذا ما أكدته القصائد الشعرية في العصر الجاهلي التي تضمنت أساليب وتعابير ذات صور مكانية واضحة المعاني بصورة أدبية شعرية وصفية ، وهذا ما يؤكد حقيقة وجود الاهتمام بالأدب الجغرافي لدى المجتمعات القديمة ولاسيما المجتمع الجاهلي.

ولغرض بيان هذا الأسباب فقد قسم الباحث البحث إلى ثلاثة محاور ، المحور الأول تناول مفهوم الصورة المكانية والأدب الجغرافي وتطوره ، في حين خصص المحور الثاني لدراسة البيئة الجغرافية السائدة خلال العصر الجاهلي، أما المحور الثالث فقد تناول مفردات ملامح الصورة المكانية التي جاءت في أبيات الشعر الجاهلي من خلال استخراجها وتفسيرها وتوضيح سبب تناولها .

تتجسد مشكلة البحث هنا بطرح التساؤلات الآتية :

١. هل هناك وجود لملامح الصورة المكانية الجغرافية في الشعر الجاهلي؟
٢. ما الأسباب التي فرضت استخدام بعض ملامح الصورة المكانية في الشعر الجاهلي ؟
٣. ما طبيعة وخصائصها وملامحها الصورة المكانية في الشعر الجاهلي ؟

ويفترض البحث الافتراضات الآتية :

١. نعم هناك وجود للصورة المكانية وملامحها في الشعر الجاهلي ذلك من خلال استخدام دلالات جغرافية في اغلب الأبيات الشعرية ولاسيما أشعار المعلقات .

٢. من الأسباب الرئيسة التي فرضت استخدام الصورة المكانية في الشعر الجاهلي هي طبيعة الظروف البيئية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية آنذاك باعتبار ان الشعر هو لغة التخاطب بين أفراد المجتمع الجاهلي .

٣. تتمثل طبيعة وخصائص وملامح الصورة المكانية في الشعر الجاهلي باستخدام مفردات جغرافية واضحة المفهوم في الكثير من الأبيات الشعرية والتي ذكرت في مناسبات عدة .

٤. ويقوم هدف البحث على أساس استخراج ملامح الصور المكانية وخصائصها من الأبيات الشعرية التي تتناول في طياتها الطابع المكاني من أجل الكشف عن الأسباب التي دعت إلى استخدام هكذا تعابير ومفردات جغرافية في نصوص أدبية .

٥. أما أهمية البحث فإنها بمدى استفادة الدارسين والمهتمين بدراسات الفكر الجغرافي منه والإطلاع عليه لمعرفة طبيعة تطور جزء مهم من تاريخ الأدب الجغرافي العربي خلال العصر العربي قبل الإسلام .

أولاً : الصورة المكانية والأدب الجغرافي (ملازمة المفهوم والتطور):

الصورة المكانية هي صورة المكان الجغرافي الذي تتحدد فيه الدراسة الجغرافية وفقاً لخصائص الظاهرة الثابتة والمتغيرة فيه زمانياً ، أي بمعنى فحص الظاهرة وفق التفاعل المكاني وتغيرها خلال الزمن بين الماضي والحاضر ، الأمر الذي يكمل من خصائص الصورة المكانية باعتبار انه لا يمكن دراسة الصورة المكانية بطريقة تحليلية ومنطقية مالم يتم فيها أولا تحديد اتجاهين مهمين هما المكان والزمان معاً .

أما بالنسبة للأدب الجغرافي ، فهو أدب قديم النشأة حديث الظهور ، نشأ منذ ان بدأ الانسان على الارض ، منذ ان اخذ يعرف ويميز الاشياء التي تدور حوله سواء كانت هذا الاشياء طبيعية أم البشرية ، وهذا يدل على ان للإنسان وجود حيوي فعال في احضان المكان منذ الازل ، فهو واكب كل ضوابط الواقعية آنذاك وتعايش معها بخصائصها كافة ، الاستدلال الذي يمكن من خلاله أن نلمس وجود نوع من الحاسة الجغرافية لدى الانسان ، الحاسة المحفزة التي تعني ممارسة عملية

التفكير الذهني بطريقة جغرافية توظف في خدمة المكان زمانيا (الشامي ، ١٩٧٨،ص١٤).

ان التفكير الفطري لدى الإنسان أخذ يتطور شيئاً فشياً بصورة تدريجية إلى معرفة والمعرفة أخذت تتطور إلى علم وظهور ما يسمى بالفكر الجغرافي الذي كان في بدايات تكوينه فكراً عفوياً ينبع من الذات بكلّ تلقائية اذ يمكن ان ينتقل من جيل الى اخر بطريقة غير مشهودة وغير مفرطة على اعتبار انه فكرٌ يبصر الحياه من المكان ، وان السبب الذي ادى الى ظهور هذه المسيرة هو العلاقة بين المكان والحياة التي كانت أداتها في الظهور هو الإنسان الذي أبصر بالمكان ومجالاته الصورية .

على هذا الأساس فإن الادب الجغرافي أدب قديم الولادة بدأ مسيرته مع مسيره الحياه التي محورها الانسان فهو أدب يتعلق بكل صور الحيز المكاني الطبيعية والبشرية التي شاهدها الإنسان وقام بتحليلها بأسلوب ساذج بدائي وصفي إلى ان تطور إلى تحليل علمي وفق مناهج حديثة استنباطية أو استقرائية ، إذ عرف بعض المخاطر الناتجة عن هذه الظواهر وانتقالها من مكان الى اخر ، لهذا فأن الأدب الجغرافي هو دراسة ظواهر المكان المنبثقة على أساس جغرافي بشكل تاريخي متسلسل منذ القدم أو حتى الوقت المعاصر ، فالأدب لا يقتصر فقط على علم اللغة العربية فحسب بل كل العلوم وفيها الجغرافية .

ان الأدب الجغرافي يقدم عرضاً متسلسلاً ومنظماً للإحداث المكانية وصورها المتعددة وفق للمدونات والتصورات ابتداءً من المراحل الأولى عن طريق المؤلفات القديمة للحضارات البدائية أو الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي مرت بها ووصولاً إلى المراحل المتقدمة وهذا ما سجل تتبعاً واضحاً لميلاد الأدب الجغرافي ونشأته وتأثيراته وعلاقاته المكانية الوصفية المتعددة الاتجاهات والصور .

يتميز الأدب الجغرافي باتجاهين رئيسين ، هما يولي الاتجاه الأول اهتمامه شطر العلوم الدقيقة اذا ما أردنا تمديد علم الجغرافية ، والاتجاه الثاني يولي اهتمامه جهة شطر الادب الفني ببعض أثار هذا المجال بذروة الإبداع (كرتشكوفسكي ،

١٩٥٧ ، ص١٨). وهـذا يعطـي تفسـيرين لتكـون ونشـأة الجغرافيـا الصـورة المكانيـة ، إذ ان الاتجـاه الأول يـدلّ علـى ان الجغرافيـا وصـورها المكانيـة ولـدت مـع العلـوم التـي كانـت فـي رحـم علـم الفلسـفة التـي كانـت هـي ام العلـوم وأقـدمها ، أمـا الاتجـاه الثـاني فيـنص علـى ان الجغرافيـا وصـورها المكانيـة بمـا أنهـا أصـبحت علمـاً متطـوراً عـن طريـق المعرفـة فـان هـذه المعرفـة او هـذا العلـم لـه ادب خـاص بـه (الخفـاف ، ٢٠١٣، ص١٤) ، وهـذا يـدل علـى ان الجغرافيـا التـي وصـلت إلينـا اليـوم كانـت تخضـع تحـت مسـميات كبيـرة عبـر العصـور المختلفـة حتـى اتسـمت بالطـابع المكـاني الأدبـي ذي الصـور المتعـددة ، فالصـورة المكانيـة كانـت عـن العـرب قبـل الإسـلام تأخـذ الطـابع الـواقعي الـذي يصـور كـل ملامـح البيئـة السـائدة آنـذاك ويجسـدها حتـى أصـبحت صـورة ممتزجـة مـع الصـورة الشـعرية . وعنـد مجـيء الإسـلام أخـذت الصـورة المكانيـة طابعـاً مميـزاً ومغـايراً عـن المرحلـة السـابقة ، فقـد تجسـدت بالأحـداث والمعـالم ذات النزعـة الجغرافيـة ولاسـيما الصـور الطبيعيـة منهـا فـي بعـض الآيـات القرآنيـة المباركـة وفـق أسـلوب صـوري قرأنـي واضـح مثـل ذكـر الريـاح و الأمطـار والرعـد والبـرق والأعاصـير وغيرهـا فضـلاً عـن عـدم إغفـال ذكـر الصـور البشـرية للمكـان كالمـدن والـرحلات والطبـائع الاجتماعيـة وغيرهـا ، وهـذا يـدل علـى أن القـرأن الكـريم تحـدث عـن الصـورة المكانيـة بأسـلوب وصـفي واقعـي الأمـر الـذي جعـل العـرب المسـلمين ان يجسـدوا ثـورة علميـة كبيـرة فـي الأدب الجغرافـي بسـبب طبيعـة حيـاتهم آنـذاك التـي فرضـت علـيهم ضـرورة الاهتمـام بصـورة المكـان الجغرافـي حتـى طـوروا علـم الجغرافيـا وأدخلـوه تحـت مفـاهيم عديـدة مثـل علـم الاطـوال والاعـراض (علـم المسـافات) ،و علـم تقـويم البلـدان ، وعلـم المسـالك والممالـك ، وعلـم عجائـب الـبلاد (الجغرافيـا الاقليميـة – الوصـفية) وكـل واحـدة مـن هـذه العلـوم لـه صـورة مكانيـة خاصـة بـه (كراتشـكو فسـكي، ١٩٥٧،ص٢٠) ، فضـلاً عـن الاهتمـام بالجوانـب الأخـرى كـالحج وتحديـد بـدايات الصـوم ونهاياتـه ومعرفـة مواقيـت الصـلاة اليوميـة وغيرهـا كلهـا امـور دعـت إلـى الاهتمام بالصورة المكانية الفلكية .

وأخـذت الصـورة المكانيـة تتطـور شـيئاً فشـياً خـلال هـذه المرحلـة ، إذ ان لطبيعـة الحـروب والفتوحـات الاسـلامية اثـراً بالغـاً فـي اتسـاع رقعـة الارض الإسـلامية التـي

شجعت على ممارسة الكثير من الانشطة الاقتصادية التي يأتي في مقدمتها التجارة ، والأنشطة العلمية التي كان الغرض منها الرحلات الاستطلاع على معلومات المدن الاخرى وطلب العلم ، والأنشطة السياسية المتمثلة بتدوين المعلومات الأمنية عن البلدان المنطوية تحت خيمة الاسلام ، ولهذا برز علماء كثيرون في هذه المرحلة أمثال آبن خرداذبة وأبن حوقل والمسعودي وياقوت الحموي والمقدسي واخوان الصفا وآبن جبر وآبن بطوطة وسليمان الشراني وغيرهم من العلماء العرب المسلمين (عمارة ، ١٩٧٣،ص١٨) .

ان مسيرة تطور الأدب الجغرافي العربي في كل مراحله الزمنية لم تخلُ من صور مكانية ، إذ ان هذا الأدب نضج بشكل كبير مكانياً في مرحلة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية و لاسيما العصور الوسطى التي كانت تعيش فيها أوربا بمرحلة ضمور وخمول فضلاً عن بقية البلدان التي لم تقع تحت مظلة الحكم العربي الإسلامي ، الأمر الذي جعل الحضارة العربية الإسلامية عرضة للتهديد والاحتلال من قبل الغرب عن طريق الحروب الصليبية التي سرق من خلالها الكثير من العلوم العربية وانتقالها إلى الحضارة الأوربية ومنها الأدب الجغرافي العربي ومؤلفاته الأصلية ، وهذا ما ذكره مؤرخ الحروب الصليبية (بروكز) عندما قال ((ليس في وسع الادب الاوربي لذلك العهد ان يقدم مثالاً يفضل مؤلفاتهم ، ويكفي بهذا الشأن تضع ما خلفه المؤرخون العرب ومقارنة ذلك بأحسن ما أنتجه من التاريخ في أوربا)) (كراتشكوفسكي ، ١٩٥٧ ، ص٢١) . ونتيجة لهذا فقد ظهرت مرحلة جديدة من الصور المكانية سميت بمرحلة (المكان المستكشف) وهي مرحلة الاستكشافات الجغرافية ذات الطابع السياسي والاقتصادي (التجاري) بالدرجة الأساس ، الأمر الذي عمل على ازدياد الرحلات ولاسيما البحرية منها عبر نطاق البحر المتوسط (الجوهري ، ١٩٩٨ ، ص٦٣) ، وبسبب هذا التطور فقد اخذ الاوربيون يطورون هذا النشاط خارج حدود بلادهم فبدأت اول عملية استكشافية جغرافية عام ١٢٥٤ م على يد العالم (ماركوبزولو) الذي وصل الى الشعوب المتبربرة الساكنة في المناطق الجبلية في شرق آسيا (فهيم ، ١٩٨٩ ، ص٢٤٢) ، وخلال المدة المحصورة ما بين (١٢٨١-١٢٩٠) تم اكتشاف راس نت في

السواحل الإفريقية وبعد ذلك أخذت تتوسع الاستكشافات والرحلات الجغرافية وهذا الشيء خلق نزعة استعمارية لدى الاوربيون في كيفية المنافسة والحصول على مستعمرات جديدة ، وهذا ما شجع على ظهور المدارس الجغرافية الكلاسيكية وتنوعها بين الالمانية والفرنسية والبريطانية والامريكية .

ان لكل مدرسة من هذه المدارس مميزاتها وأدواتها في تحليل الصورة المكانية ، فالمدرسة الألمانية تعد المدرسة الرائدة في نطاق الأدب الجغرافي الحديث المبني وفقاً للمعايير العلمية ، فالعالمان (همولت) و(ريتر) عملا على إدخال المنهج التحليلي في دراسة الظواهر الصورية المكانية مبتعدين بذلك عن المنهج الوصفي . أما المدرسة الفرنسية فقد اهتمت بالجانب المكاني الطبيعي وبعلم الكارتوكرافيا في تحليل الصورة المكانية بطريقة واقعية وتشخيصية ، ومن اشهر علمائها (فيليب بواشي) صاحب نظرية أقسام الارض الطبيعية . في حين ركزت المدرسة البريطانية اهتمامها على الدراسات المكانية البشرية لاسيما السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهذا ناتج عن الظروف الطبيعية التي كانت تمر بها انكلترا آنذاك ومن اشهر علمائهما (هالفورد ماكندر) . وعلى الرغم من حداثة المدرسة الأمريكية من حيث التتبع الزمني إلا أنها مشابهة في خصائصها مع المدرسة البريطانية رغم تأثرها بآراء العالم الألماني (كارل ريتر) وهي بذلك اهتمت بدراسة الجوانب المكانية الطبيعية والبشرية (خصباك والمياح ، ١٩٨٣ ،ص١٧٧)

في الحقيقة ان المبادئ التي انطلقت منها كل مدرسة في التحليل المكاني هي عبارة عن نظرة شمولية مختلطة ، تجمع بتحليلها للمكان بين خاصية العلم والاستعمار وهذا ما أدى إلى ظهور العديد من الجمعيات الجغرافية لهذه المدارس كالجمعية الجغرافية الألمانية والفرنسية عام ١٨٢١م والجمعية الجغرافية البريطانية عام (١٨٦٢) حتى وصل عدد الجمعيات الجغرافية في عام ١٨٨٥م الى (٩٤) جمعية جغرافية اغلبها في أوربا (٨٠) جمعية ، وكان عدد أعضائها يزيد على (٥٠) الف عضو وقد أصدرت هذه الجمعيات أكثر من (٦٢) مجلة جغرافية (فريمان ، بلا تاريخ ،ص٥٣) وهذا الاتساع في الجمعيات الجغرافية وانشطتها المتنوعة في البلدان الاوربية وصل تأثيره الى اغلب البلدان الاخرى ومن ضمنها

البلدان العربية الذي ظهرت به أول جمعية جغرافية في مصر ، وهذا ما أعطى تنوعاً في مجالات التحليل المكاني .

ان هذا التتبع الموجز لتاريخ الأدب الجغرافي العربي وضح لنا مسيرة انتقال الجغرافيا التي اختلطت مع بقية العلوم بأسلوب تشبيهي في كل المراحل ومنها مرحلة العصر الجاهلي الذي تدل قصائده الشعرية على كثرة استعمال الكنية الجغرافية إشارة منها لدلالة الصور المكانية ، وبقيت تسير الجغرافيا هكذا إلى ان تم انتشالها وخروجها من واقعها الوصفي الذي كانت عليه إلى الواقع التحليلي المكاني الذي هي عليه الآن ، الواقع الذي يتعامل مع الظواهر المكانية وفقاً للأرقام والدلالات الكمية .

ثانيا : البيئة المكانية في العصر الجاهلي :

تمتاز عناصر البيئة المكانية في العصر الجاهلي بخصائص بيئية متدهورة ، ذات صفات مكانية متباينة في خصائصها ، فالخصائص الطبيعية المتمثلة بالموقع والتضاريس والمناخ بصفاته ، والوجود الحيوي بمحتواه النباتي والحيواني ، والخصائص البشرية المتمثلة بحضور الإنسان والمجتمع البدوي وكيفية التعامل مع الأرض وتوفير فرص التعايش السلمي وغير ذلك من الأبعاد الاجتماعية كلها صفات اتسمت بالتدهور البيئي آنذاك ، وهذا ما وصفه القرآن الكريم لمكة المكرمة قبل ظهور الإسلام وانتشاره بقوله تعالى ((رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)) (الآية ٣٧ من سورة إبراهيم) ، مما يدل على ان مكة المكرمة كانت واقعة في بيئة يابسة غير مكيفة مع الإنسان والمجتمع من خلال عدم تمكن اغلب سكانها من ممارسة النشاط الزراعي إلا في مساحات قليلة رغم استواء السطح وقلة الجبال (الجميلي ، ٢٠٠٢ ،ص١٤) وذلك بسبب قسوة الظروف المناخية وقلة المصادر المائية الأمر الذي دفع سكانها إلى ممارسة النشاط التجاري .

على الرغم من هذه الظروف البيئية القاسية إلا ان المجتمع البدوي الجاهلي تكيف معها بشكل كبير مما خلقت منه مجتمعاً مهتماً بالبيئة المكانية المحيطة به بسبب احتكاكه المباشر معها فكانت تشتغل اهتماماته الاولى في الحياة اليومية

ويتأمل ظواهرها بين الحين والآخر حتى جعلت منه إنساناً ملازماً لقضاياها الايجابية والسلبية ومعتنقاً دينياً لظواهرها ولاسيما المناخية منها . وقد انعكست ظروف البيئية المكانية هذه على تصرفات المجتمع الجاهلي إذ جعلته مجتمعاً خاضعاً لإرادتها مسلماً أمره للترحال بين أرجاء الأرض الواسعة بحثاً عن ظروف بيئية جيدة ومصادر مياه وفيرة وارض خصبة زراعياً ، وهذا ما اكسبه معرفة جديدة عن توزيع الاماكن ومعرفة القبائل والمناطق الاخرى والطرق البرية والجبال والوديان والسهول والنباتات ، الشيء الذي حفزه الى المحاولة في إعطاء ربطٍ تحليلي يعتمد على الوصف وان كان ساذجاً (الهيتي وزملائه ، ١٩٨٥، ص٤٣) ، فبسبب هذا الاحتكاك المباشر بين ظروف البيئة المكانية والمجتمع أخذ يهتم بها ويصفها شعرياً بكل ما تحتويه من خصائص .

ثالثا : خصائص ملامح الصورة المكانية في الشعر الجاهلي :

مثلّ الشعر الجاهلي المرآة المنعكسة لكل ظواهر حياة المجتمع التي كانت سائدة آنذاك من خلال وصفه للبيئة بأسلوب شعري ، إذ تناول كل جوانبها وتحدث عن ظواهرها الطبيعية والبشرية بأسلوب تصويري (الجبوري ، بلا تاريخ ،ص٧٣) التي جاءت ضمن خصائص مكانية متعددة الاتجاهات ، واهم الصور المكانية التي تناولها الشعر الجاهلي هي :

١. **المكان (الموقع الجغرافي)** : يمثل المكان علاقة وثيقة الصلة بالمجتمع الجاهلي بصورة عامة ، باعتباره الموطن الأساس الذي يؤويهم ويوفر لهم ظروف العيش ، وعاملاً رئيساً للشعراء بصورة خاصة باعتباره المكان الملازم الذي يحرك شاعريتهم ويسهم في تداعي ذكرياتهم ويشير إلى مدى علاقتهم وتعلقهم بمحيطهم البيئي ، فهو البيئة المنتجة للتعايش بكل ما يحمله من سمات واقعية بكافة جوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية ، وبما ان المكان هنا يتميز بخصائص سلبية ، فقد انعكس تأثيره على أفراد المجتمع الجاهلي كافة والذي من ضمنه فئة الشعراء الذين كانوا يصورون كل ما يروه من أحدث مكانية تصويراً صادقاً (فوغاتي ، ٢٠٠٨ ، ص٢٠٦) . ويرتبط تصوير المكان بذكر جميع خصائصه باعتباره الأساس في تحديدها وتوزيعها ، فأي دور سلبي أو ايجابي

للمكان ينعكس مباشرة على تلك الخصائص ، وبما انه مكان ذات صفات سلبية فقد اكتسب أهمية كبيرة في أذهان الشعراء ، وفي هذه الحالة يصوره الشاعر أمرؤ القيس بقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

(التبريزي ، ١٩٨٥ ،ص٧٥)

وهنا تظهر لنا صور مكانية واضحة مثل (سقط اللوى ، الدخول ، وحومل، فتوضح، فالمقراة) وهي صور ترتبط بالحالة التي يعيشها الشاعر في المكان الذي أصبح معزولاً عن شرطه الإنساني .

٢- **الأرض** : تناول الشعراء موضوع الأرض من خلال صورتها التي كانت عبارة عن ارض قاحلة لا عشب بها ولا مياه سوى تضاريسها الشامخة التي تستخدم في عمليات الحروب ، وقد ذكرت الأرض بظواهرها الطبوغرافية في أسماء عدة في اغلب قصائد الشعراء ومنهم الشاعر زهير بن أبي سلمى إذ يقول :

عفا من آل فاطمة الجواء فيمن فالقوادم والحساء

فذو هاش فحيث عريفينات عفتها الريح بعدك والسماء

(الجواء) تعني هنا الأرض الواقعة بمحاذاة الوادي ، و(اليمن) هي الأرض التي تحدها بيمينك اذا دخلت بلاد قبيلة ، وأما (الحساء) فهي أرض غليظة فوقها رمل يجمع المطر(النوري ، بلا تاريخ ، ٤٥٣) . و(ذوهاش) تعني الأرض التي ينبت فيها النبات الهش ، وأما (عريفينات) فهي الأرض التي يطلع فيها الشجر الذي يستخدم للدباغة (فوغاتي ، ٢٠٠٨ ،ص٢٦٥) .

وقد جاء ذكر صورة الأودية في الشعر الجاهلي ، إذ يقول الشاعر امرؤ القيس :

والقى بصحراء الغبيط بصاعة نزول اليماني ذي العياب المحمل

و(الغبيط) تعني اسم وادي ومنه الصحراء وهي أرض لبني يربوع سميت الغبيط لان وسطها منخفض وطرفها مرتفع (الحموي ، ١٩٠٦، ص٢١١).

ولم يكتفِ الشعراء الجاهليين بهذا الوصف للأرض بل وصفوا خصوبتها أيضا، إذ تذكر الخنساء افتخارها بخصوبة الأرض وان كانت خصوبة فقيرة إلا إنها

يمكن أن يتوافر في ربوعها خصائص الحياة الرغيدة والعيش الكريم مما تحلوا في أرجائها الإقامة والاستقرار فتصفها بقولها:

اذا نحن بالإثم نرعاه ويصحبنا صون خصيب به يستأنس السرب

(ثعلب،١٩٩٤، ص، ط١٧٧)

٣- **المناخ** : أعطى المجتمع الجاهلي للخصائص المناخية وظواهرها أهمية كبيرة مقارنة بالصور المكانية الأخرى ، وذلك لسببين مهمين هما طبيعة قسوة ظروف الخصائص المناخية السائدة آنذاك . والسبب الثاني هو اعتقادهم بأنه يقف وراء كل ظاهرة مناخية إله يأمر بتحريكها ويتحكم بها ، فالإنسان كان عندما يرى أي ظاهرة مناخية كالبرق والرعد وهطول الأمطار والرياح والصواعق وغيرها كان يقوم بتقديسها واحترامها خوفا من غضب الآلهة عليه (الزبيدي ،١٩٨٠ ،ص٢٤) وربما يعد هذا هو السبب الرئيس في اهتمام المجتمع الجاهلي بالظواهر المناخية ، ولهذا اخذوا يراقبونها بدقة لغرض معرفة مواقيتها فضلاً عن بداية الفصول ونهاياتها . ومن أكثر العناصر المناخية التي أثرت بشكل واضح على طبيعة المجتمع الجاهلي والتي ذكرت في أكثر من مناسبة شعرية هي درجة الحرارة والامطار والسحاب و الرياح ، إذ امتازت درجة الحرارة بالارتفاع الكبير جراء لهيب الشمس المتوسط في قلب البيئة آنذاك لاسيما في فصل الصيف الحار جدا وهذا ما شبهه الشاعر زهير بن ابي سلمى بقوله :

وطرق تهلك الارواح فيه بعيد الغور تشتبه المكان

(ثعلب ،١٩٩٤، ص٣٤٩)

(الحرق) يعني البيئة الحارة التي لا ماء فيها ذات درجة الحرارة العالية التي تهلك الارواح وتزهق فيها . ومثلما توجد صورة للحرارة المرتفعة فهناك صورة أخرى لانخفاض درجة الحرارة (البرد) التي تحدث في فصل الشتاء ولاسيما في الليالي الباردة التي من شدة برودتها تختبئ الناس تحت المرافئ التي توقد من الحطب والأشجار ، إذ يقول أمير الشعراء في هذه الصورة :

وليلة نحس يصطلي القوس بها وأنبله اللاتي بها يتنبل

(عمار، ٢٠٠١، ١٤٣)

أما الأمطار فأنها من ضمن الخصائص المناخية التي أهتم بها المتجمع الجاهلي أيضاً بسبب شحة وندرة المصادر المائية آنذاك واعتمادهم على مياه الآبار ، الأمر الذي جعل من الأمطار ان تحظى بمكانة مرموقة في الشعر الجاهلي ، وهذا ما شكل اهتماماً واضحاً لدى الشاعرين لبيد وامرؤ القيس ،إذ يذكر لبيد ذلك بقوله :

فحدد العصم من عماية للسهل وقضي بصاحة الاربا

فلما يجلو منونهن كما يجلوا التلاميذ لؤلؤا قشبا

(فوغاتي ، ٢٠٠٨ ،ص١٢٥)

وهنا يشير إلى ان ظاهرة المطر تحي الارض بعد موتها متي تستقبل أمطار الخريف والشتاء مما تزود الإنسان بالاحتياجات الحياتية الخاصة به من ماء وغذاء.

وقد شكلت ظاهرات (البرق والرعد والسحاب) هاجساً لدى المجتمع الجاهلي فأخذوا يذكرونها في حكاياتهم وامثالهم واشعارهم حتى ولع بها الكثير من الشعراء أمثال أمرؤ القيس الذي يقول :

اصاح ترى برقا كأن وميضه كلمع اليدين في حبي مكلل

ويضيء سناه او مصابيح راهب اهان السليط بالذبال المفتل

(القيسي، ١٩٨٩' ص٥٢)

أما ظاهرة السحاب التي تظهر بعد سقوط الأمطار فيصفها الشاعر امرؤ القيس بدقة واضحة مراحلها كافة بقوله :

قعدت له وصحبتي بين ضارج وبين العذيب بعدما متأمل

على قطن بالشيم أيمن صوبه وأيسره على الستار فيذيل

وحز على الفتان من نقيانه فانزل منه العصم من كل منزل

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطما ألا مستبدا بجندل

(القيسي، ١٩٨٩،ص٥٣)

ولم يتناسَ الشعر الجاهلي ذكر صورة الرياح التي تعد إحدى الخصائص المناخية السائدة بصورة متكررة في البيئة آنذاك ، فهي رياح حارة جافة بسبب

الطبيعة الصحراوية الخالية من الاشجار والعمران والمنكشفة امام التغيرات المناخية المفاجئة ، ويجسد الشاعر زهير بن أبي سلمى هذا الحالة بقوله :

اريت لها الهوجاء واستوفضت بها حصى الرمال نجرانية حين تجهل

(ذو الرمة ،١٩٦٤، ص٥٤٧)

(اريت) تعني قيام الرياح التي تهب بشدة من غير قصد ، و(نجرانية) هي الرياح التي تهب بسرعة من المغرب والتي تعمل على سرعة حركة الرمال والحصى الناعم الذي ينتقل معها من مكان إلى آخر.

٤- **الكون (الفلك)** : عندما نذكر الصورة المكانية لا بد لنا من ذكرها كاملة بكل خصائصها البيئية ، ومن ضمن هذه الخصائص هو ما يتعلق بالكون رغم انه يعد من الأمور الملتصقة بعلم الفلك ، إذ كانت للتغيرات الحاصلة في السماء أثراً واضحاً في شد المجتمع الجاهلي إلى الاهتمام بها ومراقبة تحركاتها فكانوا يعتبرون جميع ظواهرها ظواهر إلهيه ، فالشمس مثلا يطلقون عليها اسم (الالهة) ويقسمون بها فيقولون (لا ومجري الآلهة) تعظيماً وتقديساً لها ، فزعموا بأنها تهب الصبي المبدل سناً جميلاً ناصعة البياض ، فإذا سقط للصبي سن أخذها بين السبابة والابهام واستقبل الشمس ويقول يا شمس أبدليني بسن أحسن منها ولتجر في ظلها آياتك فيرميها لكي تطلع ، وقد صورت هذه الصورة بيت شعري لأحد الشعراء الجاهليين بقوله :

سقته اياه الشمس إلا لثاثه اسف ولم تكدم عليه بأثمد

(العبد ، ١٩٧٥،ص١١٢)

ولا تزال ظاهرة رمي السن للشمس الموروثة من المجتمع الجاهلي موجودة إلى يومنا هذا ولاسيما في المجتمعات الريفية .

وبسبب هذا التعظيم للشمس والخوف منها ومن إرادتها فقد سمي اغلب أفراد المجتمع الجاهلي أسماء اولادهم ببعض اسماء الشمس مثل (عبد الشارق وعبد الشمس وعبد المحرق) وأخذت هذه الظاهرة تدخل في التكوين الشعر الجاهلي فقال احدهم :

تروحنا من اللعباء قسراً فأعجلنا الآلهة ان تؤوبا
على مثل ابن مية فانعياه تشق نواعم البشر الجيوبا
(الزيدي ، ١٩٨٠ ،ص١٨)

ومثلما للشمس آلهة فللقمر آلهته ايضاً ، إذ أطلقوا عليه اسم الإله (ود) ومعناه ((اموت على دين ود)) وهذا دفعهم الى مراقبة مسيرته ، فلاحظوا مبكراً علاقته بالمجموعة النجمية ذات التغيرات المستمرة ، فحددوا منازله وجعلوها ثمانية وعشرون منزلاً ، وأعطوا لكل من هذه المنازل اسم عربي خاص بها وهذا ما جاء في بعض أبيات الشعر الجاهلي .

كما إنهم كانوا يعرفون أسماء الكواكب حتى وصفوها وصفاً أدبياً بقولهم ((إذا طلعت الجوزاء ، توقدت المعزاء وكنست الظباء وعرفت العلياء وطاب الخناء)) (الهيتي وزملاؤه ، ١٩٨٥ ،ص٤٣) ، وهذا ما دعاهم إلى ذكر اغلب الكواكب الفلكية في الشعر الجاهلي لاسيما منها التي تعد مصدرا للعبادة ، إذ عبدوا كوكب المشتري الذي اعتقدوا بأنه يميل إلى الليل عكس كوكب الشمس الذي يميل إلى النهار ، هذا ما أكده الدكتور جواد علي عندما قال ان اهل الجاهلية في الاصل كانت عبادتهم تميل الى عبادة الكواكب مستندا على قول بعض العلماء ولهذا فان جميع أسماء الأصنام والآلهة في العصر الجاهلي ترجع إلى ثالوث سماوي هو (الشمس والقمر والزهرة) (جواد ،١٩٧٣، ص٥٠) هذا فضلاً عن اهتمامهم للنجوم التي اخذوا يراقبون طلوعها و مغيبها إذ يصف الشاعر لبيد بن ربيعة هذه الحالة فيقول :

بلينا وما ابتلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع
(فوغاتي ، ٢٠٠٨،ص٨٠)

وقد دفعهم هذا الاهتمام الى التأمل بنظرات الليل الذي يمثل للمجتمع الجاهلي ملاذا تهدأ فيه الافكار ومسكناً يستر الاشياء بسب ظلامه الدافئ ، فاخذوا يعرفون توقيت ساعاته ويجلسون عنده للتسامر ، لذا اخذ الشعراء الجاهلين يشبهون صورة الليل بصورة ابعد عن المظاهر الجغرافية الأخرى على اعتباره مكاناً

يشاهدون فيه النجوم الطالعة وهذا ما صوره الشاعر سويد بن أبي في أبياته الشعرية ، إذ يقول :

كذاك الحب ما اشجعه يركب الهول ويعصي من وزعه
فأبيت الليل ما أرقده وبعيني إذا النجم طلع
وإذا ما قلت ليل قد مضى عطف الأول منه مزجع
يسحب الليل نجومه ضلعا فتواليها بطيئان التبع
ويزجيها على إبطائها مغرب اللون وإذا اللون القشع

ويعد عنصر الزمن من الأمور المتعلقة بالكون التي اهتم بها عرب الجاهلية أيضا إذ استمدوا قوته من قوة الشمس وسطوعها والقمر والكواكب (فوغاتي ، ٢٠٠٨، ص٥٢) ، فكانوا يقولون مثلاً (زمن الحر) أو(زمن البرد) أو أي إشارة تدل على صورة الزمن الأمر الذي قادهم إلى إجراء مقارنة بين أوقات الليل وأوقات النهار من خلال من خلال المراقبة لزمنهما وهذا واضح في شعر امرؤ القيس إذ قال:

أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

(البطليوسي ،١٩٧٩ ،ص٩٥)

وان هذا الاهتمام بالزمن قادهم إلى التنبؤ بحالات الطقس وتقلباته ، كما انه اقترن كثيراً بأمور التعب والإرهاق والأحزان والأمراض والموت والسفر الذي يصيب الحياة نتيجة لطول مدته ، وهذا ما وصفه الشاعر الأعشى بقوله :

لعمرك ما طول هذا الزمن على المرء الاعناء معن
يظل رجيما لريب المنون وللسقم في أهله والحزن
فهل يمنعني ارتيادي البلاد من حذر الموت ان يأتين

(فوغاتي ، ٢٠٠٨ ،ص٨٠)

٥- **الموارد المائية** : اقترن الماء عند المجتمعات القديمة بالتصور الإنساني وبالصفات المنيولوجية نتيجة لما تراه من منفعة شموله وسبباً في وجودها الأمر الذي جعله مورداً مهماً أزلياً عند تلك المجتمعات ولاسيما مجتمع عرب الجاهلية

الـذين قدسـوا مـواطن الميـاه القديمـة وتصـوروا ان فيهـا سـراً غامضـاً ، ومـوطن للآلهـة والأرواح فكـانوا إذا غـاب عـنهم أحـد الأشـخاص يجـئ بعضـهم الـى بئـر قديمـة بعيـدة عـن الغـور ينـادي باسـمه (فـلان يـا فـلان) فـان لـم يسـمعوا أصـواتاً للميـاه يحسـبون انـه ميتـاً وان سـمعوا أصـواتاً للميـاه حسـبوا انـه حـي (الزيـدي ، ١٩٨٠، ص٣٤) . هـذه الحالة يصفها أحد الشعراء بقوله :

دعوت أبا المغوار في الحفر دعوة فما آخى صوتي بالذي كنت داعيا

أظن أبا المغوار في قعر مـظلم تـجر علـيه الذاريـات السواقيا

(الزيدي ،١٩٨٠ ،ص٣٤)

كمـا ان هـذا الاهتمـام بالمصـادر المائيـة ارتـبط بعامـل قلتهـا وشـحتها نتيجـة لطبيعـة الظـروف البيئيـة التـي تمتـاز بالجفـاف والتقلـب والتذبـذب الحـراري ، إلا ان هـذا لـم يجعلهـم مجتمـع مكتـوفي الايـدي ، اذ عملـوا علـى معرفـة مصـادر ميـاه بديلـة مـن خـلال القيـام بإنشـاء (٨٠) سـدة مائيـة بطريقـة بدائيـة علـى الوديـان كسـد مـأرب الـذي انشـأ فـي الـيمن بطريقـة هندسـية مكيفـة بحسـب الخصـائص المناخيـة السـائدة لغـرض الاحتفـاظ بـأكبر قيمـة للميـاه (الهيتـي وزمـلاءه ،١٩٨٥، ص٤٣) إسـهاماً منهـا فـي العمليـات الزراعيـة ووفـرة الخيـرات وهـذا مـا صـوره الشـاعر لبيـد بـن ربيعـة فـي شـعره للماء بأنه يبعث الحياة للجميع من خلال خيره الذي اعشوشبت به المراعي بقوله :

رقت مرابيع النجوم وصابها ودت الرواعد جودها فرهافها

من كل سارية وغاد قد جن وعشبه متـجاوب ارزامها

(مسكين ، ٢٠٠٥ ، ص٥٤)

وان لعمليـة حفـر الآبـار مـن أجـل الاحتفـاظ بالميـاه وامتلاكهـا والسـيطرة عليهـا أهميـة كبيـرة لـدى المجتمـع الجـاهلي ، إذ أصـبحت هـذه الآبـار ذات حرمـة مقدسـة تقـوم علـى اساسـها الحـروب إذا انتهكـت لهـذا كانـت موضـع افتخـار عنـدهم ، وهـذا مـا اكـده الشاعر كعب بن الاشرف مفتخرا بقومه الذي يمتلك بئراً غزيراً من المياه .

ولنا بئر وراء جهة مكن يردها بإناء يغتـرف

تدلج الجون على أكنافها بدلاء ذات أمراس صدف

(الأصفهاني ،١٩٥٦، ص١٣٥)

٦- **النبـات الطبيعـي** : للنبـات او الشـجر ميـزة خاصـة فـي حيـاة العـرب قبـل الاسـلام ، لأنـه شـي مقـدس يشـكل عـاملاً مخيفـاً لـدى المجتمـع ، فهنـاك فـي رأيهـم شـجر يجلـب الشـر مثـل شـجرة (التـين) التـي هـي أكثـر مسـكن للشـياطين السـبب الـذي دفعهـم إلـى تقـديس الأشـجار وعبادتهـا بـدوافع متعـددة امـا لـدفع الضـرر او لجلـب الخيـر ، فكانـت (القـرى) تعبـد بـثلاث شـجرات سـحرات بـبطن نخلـة ولـم تكـن عبادتهـا مقصـورة فقـط علـى الشـجرات الـثلاث سـحرات بـل كـان لهـم صـنم يعبـد أيضـاً ، ولهـا بيـت محمـي تقـدم منـه ضـروب الشـعراء (الزيـدي ،١٩٨٠ ،ص٤٠) ولهـذا جـاء الكثيـر مـن اسـماء الاشجار والنباتات في الشعر الجاهلي ، وهذا ما ذكره الشاعر أمرؤ القيس بقوله :

ترى بَعَرَ الآرامِ في عَرَصاتها وقِيعانها كأنَّه حَبُّ فُلْـفُلِ

كأنِّي غـداةَ البَيْنِ يومَ تحمَّلوا لدَى سَمُراتِ الحَيِّ ناقِفُ حَنْظَل

(الشنقيطي ، بلا تاريخ ، ص٦٢)

وتظهر صورة النباتات في مفردات (حب فلفل والسمرات وحنظل) .

٧- **التنـوع الحيـاتي** : لـم يكتـف المجتمـع الجـاهلي بالتـأثر بالخصـائص البيئيـة فقـط بـل امتـد تـأثره الـى جميـع ملامـح الكائنـات الحياتيـة السـائدة فـي البيئـة الصـحراوية ولاسـيما الخيـل والناقـة اللـذين همـا الأكثـر سـيادة وانتشـارا فـي البيئـة ، فالخيـل عنـدهم بمثـل الوسـيلة المباشـرة للترحـال ورمـزاً للشـجاعة والفروسـية ، وكـذلك الناقـة التـي تمثـل وسـيلة ايضـاً للترحـال وانتقـال الاشـياء مـن مكـان الـى آخـر فهـي تجـود البـر برحلاتهـا ، وهـذا الاهتمـام خلـق نوعـا واضـحا مـن التـآلف بـين الانسـان والحيـوان وصـل تـأثيره الـى طبقـة الشـعراء حتـى بـرز مـنهم شـعراء عرفـوا بهـذا الوصـف كـآمرئ قـيس والطفيـل والنابغـة الـذبياني وطرفـة بـن العبـد واوس بـن حجـر وربيعـة بـن مقـروم ، فيقـول ربيعـة بن مقروم في هذا الجانب :

وجـردا يقر من دون العـيال خلال بيوت يلكن الشكيما

(الجبوري ، ١٩٧٤،ص٢٥٣) .

اما طرفة بن العبد فيصف الناقة بقوله :

تربعت القفين في الشول ترتعي حدائق مولن الاسيرة اغيد

(الجبوري ،١٩٧٤، ص٢٥)

٨- **السكان** : للخصائص الطبيعة التي ذكرت أثرٌ بالغٌ في التأثير على الصفات الجسمية لسكان المجتمع الجاهلي ، إذ خلقت منهم مجتمعاً بدوياً مترحلاً بين مواسم السنة هذا من جانب ، من جانب آخر أثرت البيئة على صفاتهم البايلوجية وعلى تصرفاتهم وعاداتهم وتقاليدهم السلوكية ، فالبيئة جعلت منهم مجتمعا شديد التعصب ، ذا أفق غير متسع ، محارباً ميالاً الى الخصومة في جميع امور حياته اليومية (الجبوري ، ١٩٧٤، ص٤٨) . كما أدت الظروف البيئية هذه الى خلق نمط رئيس من انماط المعيشة هو نمط البداوة المتنقلة الذي يعتمد على البحث عن الأرض الجيدة الملائمة للعيش ، رغم ان اغلب أفراد المجتمع الجاهلي كان يمتهن حرفة الوظيفة الاقتصادية لاسيما تجارة القوافل التي تهتم بنقل البضائع والسلع التجارية من جنوب الجزيرة العربية إلى اطرافها الشمالية في بلاد الشام والعراق التي كانت تمثل مراكز التقدم الحضاري آنذاك والتي أسهمت بشكل كبير في الاستقرار فضلاً عن انتشار اللغة العربية في شمال الجزيرة العربية وتحولها إلى لغة لكل العرب عند ظهور الإسلام و ومجيئه (الملاح ،١٩٩٤، ص٣١- ٣٣) . ان لهذه الخصائص أثراً واضحاً في نفس الشعراء الجاهلين وهواجسهم ، إذ اخذت تشغل مساحة كبيرة من اذهانهم وقصائدهم ولاسيما أشعار المعلقات ، اذ يقول المهلهل ابن ربيعة في وصف تدهور أوضاع السكان نتيجةً لأثر رياح الصحراء .

خلولا الريح اسمع أهل حجر صليل البيض تقرع بالذكور

(الجبوري، ١٩٧٤ ،ص٨٦)

٩- **العمران** : اتصفت ظاهره العمران في العصر الجاهلي بالطلل ويقصد بالطلل هو الشيء الواقعي الذي يعكس ما بقي من الآثار القديمة المشاهدة الحية (مسكين ،٢٠٠٥،ص٢٣) وهذا المعنى يشمل بقايا آثار العمران والديار المتهرئة التي حولتها الظروف الطبيعية القاسية الى بقايا حجارة صامدة في الصحراء الأمر الذي المجتمع الجاهلي للاهتمام بها ، إذ قاموا بمخاطبتها ومناجاتها وتحديد اماكنها واسمائها وتكرار ذكرها ونسبة بعضها الى بعض من واد وجبل وعين ماء ونجد

وسهل حتى تناولها بعض الشعراء في قصائدهم ومنهم الشاعر لبيد في معلقته التي أعطى فيها صورة مكانية دقيقة لتلك الديار المقفرة من خلال تحديد مواقعها الجغرافية اتجاهاتها بقوله

غصت الديار محلها فمقامها بمنى تابد غولها فرجمها
فمدامع الريان عري رسمها خلقا كما ضن الوحي سلامها
مرية حلت بقيد وجاورت أهل الحجاز فأين منك حرامها

(الجبوري ، بلا تاريخ ، ص٩٧)

وهذا ما قاد إلى الاهتمام بالأماكن الجغرافية والعمارة ومعرفة آثار الأقوام السابقين الذين عاشوا قبل المجتمع الجاهلي .

١٠- **الرحلة** : تمثل الرحلة عين الجغرافيا المبصرة التي هي جزء أصيل من حركة الحياة على الأرض التي عرفها العرب منذ القدم ومارسها في شبه الجزيرة العربية والبلدان المتاخمة لها ، فقاموا برحلتي الشتاء والصيف اللتين وردا ذكرهما في القرآن الكريم ، وابحرت سفنهم في مياه المحيط الهندي ، إذ اتجهوا شرقاً نحو بلاد الهند وغرباً نحو افريقيا (فهيم ، ١٩٨٩،ص٨٩) وهذا ما أدى إلى حصول اتصال فكري بين الشعوب من حيث الإطلاع على الثقافات الأخرى واكتساب المعارف المتنوعة المجالات والتي من ضمنها المعرفة الجغرافية . وهناك أنواع متعدد من الرحلات التي ظهرت في العصر الجاهلي أهما الرحلات الباحثة عن المواد الطبيعية بسبب طبيعة ظروف البيئة القاسية التي عملت على تحديد مسارات الرحلة وأغراضها التي كانت بالأساس هو البحث عن الموارد المائية ، فضلاً عن الرحلات الاستطلاعية على ثقافات وعادات وتقاليد الشعوب الأخرى والآثار العمرانية (الشامي ، ١٩٧٨،ص٢١) . والرحلات الغازية الناتجة بسبب طبيعة تفاقم مشكلة النزاعات والحروب القائمة آنذاك بين القبائل ، هذا إلى جانب الرحلات الاقتصادية ولاسيما التجارية منها ، وهذا ما دونه بعض الشعراء في قصائدهم التي برز في اغلبها صور واضحة تتحدث عن جوانب الرحلة وأسبابها ، إذ يقول احدهم في وصفها ووصف سيرها في الليل المعتم :

جاوزت فلجأ فالحزن يدلجن بالليل ومن رمل عالج كثيبا
من بعد ما جاوزت شقائق خالد هناء فصلب الصحان والخشبا

(كراتشكوفسكي ، ١٩٥٧ ،ص٤٣)

ان المقاطع الشعرية التي ذكرت هنا وغيرها من الأبيات التي لم تذكر أكثرها يدل على وجود صور مكانية واضحة المعالم من خلال التجسيد الواضح لخصائصها وطبائعها ، وهذا يدل على ان الأدب الجغرافي العربي في العصر الجاهلي انتقل إلينا عن طريق المعلقات الشعرية التي برع بها الشعراء الجاهلين التي كانت بمثابة سجل يدون كافة الأحداث الجغرافية التي تصادفهم آنذاك سواء كانت طبيعية اجتماعية ثقافية اقتصادية أو حربية

النتائج

١. بروز استعمال واضح للصورة المكانية بأنواعها كافة وبدلالات متنوعة الأمر الذي أدى إلى اقتران ظهورها مع ظهور الأدب الجغرافي ، فهي صورة مبنية على أساس الوصف الجغرافي بأسلوب شعري والتي تطرح موضوعات بيئية سواء كانت بصورة مقصودة أو عفوية .

٢. برزت الصورة المكانية بسبب طبيعة الظروف البيئية السائدة آنذاك في المجتمع الجاهلي والتي تعد من الأسباب الرئيسة التي دعت إلى استخدام التعابير والمفردات الجغرافية في القصيدة الجاهلية ، فهي صورة أخذت تشكل للمجتمع تحديا مباشرا لكيانه واستقراره .

٣. ان الصورة المكانية لم تقتصر على الوصف والإشارة إلى الظروف البيئية الطبيعية فحسب بل إنها ذهبت ابعد من ذلك ، إذ رسمت من خلال الأبيات الشعرية خريطة دلالية واضحة للمفردات وللمعرفة الجغرافية من خلال تحركاتها في تناول الجامع والصومعة والدير والإطلال فضلاً عن تناول الصورة الفكرية عن نشاطات الفئات الاجتماعية في العصر الجاهلي وهذا ما اتضح في اغلب المؤلفات العربية ومنها كتب المعاجم كمعجم البلدان لياقوت الحموي .

٤. تطورت مسيرة الأدب الجغرافي منذ البدايات الأولى التي كانت تتمثل بالوصف الجغرافي الذي يختزل في رحم العلوم الأخرى ولاسيما العلوم الفلسفية منها واستمرت هذه المسيرة إلى ان أصبح أدباً مستقلا بحد ذاته وصولا إلى الوقت المعاصر التي اخذ من خلالها الأدب الجغرافي يتعامل مع الحقائق البيئية بصورة واقعية وفق الأساليب الكمية .

٥. امتاز الأدب الجغرافي بكشف الحقائق الصورية المكانية عبر الأزمنة كافة ونقلها وتدوينها كما هي سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، كما انه اتسم بأدب ذي صفات موضوعية واقعية جسّد الصور البيئية وفق المراحل الزمنية ، فضلاً عن انه أدب تحول من طريقة التعامل مع الخيال إلى طريقة التعامل مع الواقع القائم وهذا ما اكدته القصائد الشعرية الجاهلية التي بينت حقيقة تعايش الظروف البيئية المكانية مع الإنسان بصورة مباشرة .

Abstract

The Aspects of Spatial Image in Pre-Islamic Poetry: A Study in Arab Geographical Literature

Ins. Ahmed Yahya Annouz
University of Kufa- College of Arts

Geographical literature has gained great importance in the study of geography in general and geographical ideology in particular as geographical literature is the real picture of geographical development over time. It is a literature with ancient history going back to the Greek era. Thus, there is overlap other sciences. Spatial image was formed in pre-Islamic poetry through utterances and meanings with geographical nature which proves the spatial characteristic of geographical literature. So, the real evidence on the history of geographical literature appeared through poetry.

The main reason behind the emergence of spatial image in pre-Islamic age is the direct contact of the society in all its classes with the environment and being affected by it. This gave a great motive to the attention to geographical issues on all the aspects of life. Those issues were mentioned frequently on all occasions like poetry. It was stressed in pre-Islamic poems that contained images and styles that discuss the place and its characteristics in a clear descriptive way

المصادر

- الأصفهاني ، أبو الفرج ، الأغاني ، مجلد ٢٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٦.
- البطليوسي ، أبي بكر عاصم بن أيوب ، شرح الأشعار الستة الجاهلية ، تحقيق ناصيف سلمان عواد ، الجزء الأول ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٩ .
- التبريزي ، شرح المعلقات العشر، شرح (عبد السلام الحرتان) ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٥.
- ثعلب ، أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد ، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ،١٩٦٤ .
- الجبوري ، منذر ،أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي ، دار الحرية للطباعة ، بغدا د ، ١٩٧٤ .
- الجبوري ، يحيى ، الشعر الجاهلي : خصائصه وفنونه ، دار التربية ، بغداد ، بلا تاريخ .
- الجميلي ، خضير عباس ، قبيلة قريش وأثرها في الحياة العربية قبل الاسلام ، مطبعة المجتمع العلمي العراقي ، بغداد ، ٢٠٠٢ .
- جواد ، علي ، المفصل في تاريخ العربي قبل الإسلام ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- الجوهري ، يسرى عبد الرزاق ، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ،١٩٩٨ .
- الحموي ، ياقوت ابن عبد الله البغدادي ، معجم البلدان ، ط١ ، مطبعة السعادة ، مصر ،١٩٠٦.
- خصباك ، شاكر والمياح ، محمد علي ، الفكر الجغرافي : تطوره وطرق بحثه ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨٣ .

- الخفاف ، عبد علي حسن ، محاضرات في الفكر الجغرافي ، محاضرات القيت على طلبة الدراسات العليا (الدكتوراه) ،جامعة الكوفة، كلية الآداب ، ٢٠١٣ .
- ذي الرمة ، ديوان ذي الرمة ، ط٢ ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٩٦٤
- الزيدي ، كاصد ياسر ، الطبيعة في القران الكريم ، دار الرشيد للنشر ،بغداد ، ١٩٨٠ .
- الشامي ، صلاح الدين ،الإسلام والفكر الجغرافي العربي ، منشأه المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٨.
- الشنقيطي ، احمد الأمين ، المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار النصر، بلا تاريخ .
- العبد ، طرفة ، ديوان طرفة بن العبد ، دار صادر ، بيروت ،١٩٧٥ .
- عمارة ، محمد ، التمدن والحضارة والعمران ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت ،١٩٧٣.
- فريمان ، الجغرافيا في مئة عام ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، بلا تاريخ .
- فهيم ، حسين محمد ، أدب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة ، مطبعة الرسالة ، الكويت ،١٩٨٩.
- فوغاتي ، حسين محمد ، الزمان والمكان في الشعر الجاهلي ، الطبعة الأولى ،عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع ، اربد ، ٢٠٠٨ .
- القيسي ، نوري حمود وزملائه ، تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٩ .
- كراتشكو فسكي ، اغناطيوس يوليا توفيتش ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي (القسم الأول) ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- مسكين ، حسن ، الخطاب الشعري الجاهلي (رؤية جديدة)، الطبعة الأولى ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ، المغرب ، ٢٠٠٥.

- الملاح ، هاشم يحيى ، الوسيط في التاريخ العربي قبل الإسلام ، دار الكتاب للطباعة والنشر الموصل ،١٩٩٤.
- الهيتي ، فارس صبري وزملائه ، الفكر الجغرافي وطرق البحث ، مديرية مطبعة المأمون ، جامعة الموصل ،١٩٨٥.